الظاهرة الفنية وتعدد الوظائف بين الجمالية، المنفعة المادية، و اثبات الكينونة

The artistic phenomenon between the aesthetic dimension and the proof of being and identity

مختار رحاب*

أستاذ، جامعة محمد بوضياف-المسيلة

Mokhtar Rahab

professor -Mohamed Boudiaf University of M'sila

mokhtar.rahab@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/01/16 تاريخ القبول: 2022/02/28 تاريخ النشر: 2022/04/03

- **الملخص:** لقد انصب الاهتمام العلمي بدراسة المجتمعات والشعوب والثقافات منذ زمن بعيد، وكان من جملة الاهتمامات العلمية في هذا المجال هو تشخيص ودراسة العلاقة بين الفنون والواقع الاجتماعي، خصوصا في نطاق التفاعل اليومي للأفراد وما تؤديه الفنون بمختلف أشكالها وأنواعها من وظائف تنعكس ايجابيا على حياة الأفراد من خلال إضفاء أبعاد جمالية، ومنافع مادية، وكذا وظائف رمزية قوية ترتبط بالهوية الفردية والجماعية. كما تدعم معنى الحياة في بعدها الجمالي ومغزاها الوجودي وتدعيم معاني السعادة في حياة الإنسان، كما شكلت الفنون لدى العديد من الشعوب في فترات زمنية مختلفة أداة فعالة ضمن مشروع الدفاع والمقاومة، والمساهمة في إثبات الذات المجتمعية وترسيخ مقومات الشخصية الوطنية ضد مشاريع الامبريالية والهيمنة ومحاولات الإخضاع والسيطرة. هذا بالإضافة إلى استخدام الفنون بمختلف أنواعها كأداة للتواصل الحضاري بين الثقافات والمجتمعات وترسيخ مبادئ التعايش والحوار بين الشعوب خصوصا في زمننا الراهن. وفي مقالنا سنحاول إبراز الأبعاد والوظائف الجمالية المادية، واثبات الكينونة التي تؤديها الفنون في حياة المجتمعات.

- **الكلمات المفتاحية:** الفن، الجمالية، المجتمع، الثقافة، الكينونة.

- **Abstract:** The scientific interest has focused on studying societies, peoples and cultures for a long time, and among the scientific interests in this field is the diagnosis and study of the relationship between arts and social reality, especially in the scope of daily interaction of individuals and what functions the arts with their various forms and types perform positively on the lives of individuals, through imparting aesthetic dimensions, material benefits, as well as strong symbolic functions associated with individual and group identity. It also supports the meaning of life in its aesthetic dimension, its existential significance, and the reinforcement of the meanings of happiness in human life. Arts of many people at different periods of time formed an effective tool within the project of defense and resistance, contributing to societal self-assertion and consolidating the elements of the national character against imperialism, domination, subjugation and control attempts. This is in addition to the use of arts of all kinds as a tool for civilized communication between cultures and societies and the consolidation of principles of coexistence and dialogue among people, especially in

*- المؤلف المرسل

our present time. In our article, we will try to highlight the aesthetic and material dimensions and functions of the arts in the life of societies.

- **Keywords:** The artistic, the aesthetic, the society, the cultures, identity

- مقدمة:

إن المتتبع لتطور الحياة الاجتماعية لدى الإنسان منذ زمن بعيد، يجد مجموعة من المتلازمات من أبرزها وجود الفعل والنشاط الفني في أبسط صوره، بأشكال تعبير بسيطة وآليات متواضعة تستجيب لحاجيات الإنسان وفق مستويات حياة بسيطة بعيدة عن التعقيد. ومع تطور الحياة وتعقد مجرياتها بمرور الزمن وحدوث تغيرات على المستوى الاجتماعي والثقافي، خصوصا في الأزمان الأخيرة بعد فترة الثورة الصناعية وما تلاها من ثورات متسارعة كان آخرها الثورة التكنولوجية.

هذه الأخيرة أنجرت عليها مجموعة من التحديات كان من أبرزها تعقد حياة الإنسان، وزيادة شعوره بالاغتراب، مما استدعى أن يلعب الفن دورا في التخفيف من العديد من الأزمات التي يعيشها الإنسان، واعتماد الفعل الفني في تهذيب سلوك الإنسان ، كما أصبح يعول على الفن أن يلعب دورا مهما في الجانب الاقتصادي من خلال المساهمة في موازنة الدخل القومي، هذا بالإضافة إلى اعتماد الفعل الفني في عمليات المقاومة الثقافية وتوظيف الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها كسفير في ظل التفاعل الثقافي العالمي كمعبر عن هوية الدولة والمجتمع، هذا بالإضافة إلى حماية الهوية في ظل عمليات التثاقف القسرية التي نحياها تحت سماء العولمة الثقافية.

أولا: الإشكالية:

تكمن أهمية هذه المقالة في تحديد البعد الوظيفي الذي يمكن أن تؤديه الظاهرة الفنية في حياة الفرد والمجتمع. فإذا كانت حياة الفرد في المجتمعات الصناعية تتسم بتقسيم العمل والنزوع نحو الفردانية والشعور بالاغتراب والشك من ضمان سعادة وإنسانية الإنسان ضمن معتركات الحضارة المعاصرة، فالعكس ضمن المجتمعات التي نسميها تقليدية حيث ومن خلال النظر واستبار الفن التقليدي السائد على اختلاف أشكاله وأنواعه نجد تعبير وتجسيد للشعور بالوحدة والتماسك والتضامن وفق نسق القيم الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة.

ويتوسع هذا التضامن لا ليشمل نطاقه القرابة وحسب بل يمتد إلى فئات أوسع، ومن مؤشرات ذلك ضمن الفنون التشكيلية نجد تجسيد ما يرمز أو ما يستدعي شخصيات صنعت ماضي الجماعة لأن تسجيل حضورها في الزمن الذي نحياه خصوصا ما تعلق بالشخصيات التي تشكل الأنموذج الروحي أو النضالي والتضحية في سبيل حياة الجماعة أو القبيلة أو المجتمع. حيث

تم الاعتماد على الفنون التشكيلية خصوصا المنحوتات لتجسيد هؤلاء المرجعيات أو الشخصيات الأسطورية أو النضالية وهذه الظاهرة تكاد تكون منتشرة وفاعلة في كل ثقافات الشعوب المعاصرة.

والفرق بين الجمال في الحياة والجمال في الفن، أن الجمال في الحياة ليس من صنع الإنسان، أما الجمال في الفن فهو من صنع الإنسان، ومن هنا انطلق أرسطو في نظريته القائلة بالمحاكاة، فكل شيء في الوجود هو محاكاة لمثال لا تقع عليه العين، وكل عمل فني هو محاكاة لعمل جميل موجود أو متصور تقع عليه عين الفنان، أو يجلوه له فكره أو يصوره له خياله، وليس جمال الفتاة قائما على جمال الموضوع، فالجميل والقبيح من مظاهر الطبيعة والحياة، يمكن أن يمدا أهل الفن بموضوعاتهم حتى يكون هناك جمال الجمال، أو جمال القبح فيغدو الجميل أجمل مما هو، والقبيح أشد إثـارة واشمئزازا (علوش، 2000، ص.247)

إن التحليل الأنثروبولوجي والسوسيولوجي للوظيفة التي تؤديها الفنون في حياة الفرد والمجتمع ذا أهمية بالغة، حيث يكشف لنا الشرط وحتمية الارتباط بين الفن والحياة النفسية للفرد والحياة الاجتماعية للجماعة هذا من جهة، ومن جهة أخرى يساعدنا التحليل الأنثروبولوجي والسوسيولوجي في الكشف عن وجود وملازمة الإنتاج الفني بمختلف أنواعه وأشكاله لأي كيان اجتماعي منذ زمن سحيق، ويساعدنا التحليل الأنثروبولوجي ايضا استنادا للاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا على البحث في أصول ونشأة الفنون لدى الإنسان، وكيفيات وآليات انتشارها من والى المجتمعات منذ الزمن الماضي إلى وقتنا الحاضر بكل آلياته الإعلامية الحديثة، وشبكات التواصل الاجتماعي المعاصرة.

وفي ضوء ما سبق يمكننا الانطلاق من التساؤلات الآتية:

- ما هي أهم الوظائف التي يمكن أن تؤديها الظاهرة الفنية في حياة الفرد والمجتمع؟
- كيف يتشكل البعد الجمالي في الأعمال الفنية؟
- كيف تساهم الفنون بمختلف أشكالها في الدخل القومي للبلاد؟
- هل تعمل الفنون على إثبات كينونة المجتمع، وتدافع عن هويته في ظل التداخل والتثاقف القصري الذي نعيشه في عصر العولمة الثقافية؟

ومن جملة الأهداف التي سنعمل من خلال هذا المقال للوصول إلى تحقيقها نذكر منها:

- إبراز البعد الجمالي في الأعمال الفنية وتبيين أثره في حياة الفرد والمجتمع.
- إبراز مساهمة الفنون في تحقيق المنفعة المادية للفرد، وتنمية الدخل القومي خصوصا من خلال الصناعات الثقافية.

- الوقوف على الدور الذي تؤديه الفنون فيما يتعلق بإثبات كينونة المجتمع، والدفاع عن هويته في ظل التداخل والتثاقف القصري الذي نعيشه في عصر العولمة الثقافية.

1- المصطلحات والمفاهيم:

1-1-الجمال:

يقول أبو حامد الغزالي: " كل شيء فجماله وحسنه في أن، يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر " (الغزالي، ص. 295).

يُعرف" سنتايانا "علم الجمال بقوله: أن الجمال هو اللذة إذا تجسدت موضوعا فحينما يرى المشاهد أن لذته هي صفة في الموضوع الذي يشاهده فإنه يقول عنه أنه جميل، ويضيف "سنتايانا" بأن الجمال هو لذة إيجابية ذاتية متمثلة في الموضوع الجميل أو هو اللذة منظورا إليها على أنها صفة في الشيء

والمتأمل في كلام أبى حامد الغزالي يتبين له أن الكمال شرط من شروط الجمال ونسبة هذا الأخير مرتبطة بنسبة حضور الكمال، فيمكن أن نصف الشيء بأنه في غاية الحسن والجمال إذا اجتمعت كل الكمالات والصفات اللائقة به ومثال ذلك الزهرة تكون جميلة إذا كانت متناسقة الألوان بهية الشكل طيبة الرائحة.

1-2- الرمز:

إذا بحثنا عن أصل كلمة " الرمز" نجده غائرا في الزمن الماضي السحيق فمن مدلولات كلمة الرمز عند اليونان: قطعة فخار أو زخرف تقدم إلى الزائر الغريب رمزا للضيافة، وكلمة الرمز"symbole" مشتقة من فعل يوناني يحمل معنى الرمي المشترك"jeter ensemble" أي اشتراك شيئين في مجرى واحد وتوحدهما. (الأيوبي، 1982 ص. 80)

ومن معاني الرمز: "الإيحاء" أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالاتها الوضعية والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح (غنيمي، 1983، ص. 398)

1-3-الهوية:

إن إعطاء تعريف جامع مانع للهوية يعد أمرا صعب المنال والسبب في ذلك هو التداخل الحاصل بين مصطلح الهوية مع العديد من المصطلحات القريبة ذات الصلة، ومن أبرزها الثقافة والهوية، الهوية والحضارة الهوية والقومية، الهوية والوطنية، الهوية والأيديولوجيا وغيرها، وفي هذا

السياق كانت Duvant. D.A قد طرحت هذا التداخل خلال عقد الثمانينيات من القرن الماضي حيث توصلت إلى صياغة ما فحواه :" هناك تكافؤ بين الهوية والذات والأنا" (مسلم، 2009، ص86).

وإذا تطرقنا بصورة سريعة إلى كرونولوجيا التناول الفلسفي والعلمي لمصطلح الهوية فنجده حاضرا في كتابات الفيلسوف اليوناني أرسطو ثم ظل مفهوم الهوية محل التناول والتداول مرورا بكل الحضارات إلى يومنا هذا كما شغل حيزا معتبرا لدى فلاسفة ومفكري الحضارة العربية الإسلامية، ونظرا لسياق المقال فالمجال لا يتسع لتتبع مراحل تطور مدلولات مصطلح الهوية عبر الزمن.

ولهذا سنسوق تعريفات تخدم إشكالية المقال مع التركيز على التعريفات التي تناولت مفهوم الهوية مرتبطا بالواقع الاجتماعي، وفي هذا السياق ترى كاترين هالبيرن:" أن مفهوم الهوية قد اكتسح في بحر بضعة عقود مجمل العلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد فرض هذا المفهوم نفسه حتى غدا بمثابة كلمة سحرية وذلك في تحليل حقائق جد متنوعة مثل علم نفس الأفراد، وتحولات الأديان، والعلاقات بين النساء والرجال، وموضوعات المهن، والحياة الأسرية، الهجرة، والصراعات العرقية، يشهد على ذلك ما يكتب من افتتاحيات كثيرة عن هذا الموضوع." (هالبير، ترجمة الياس بلكا www.cjtcmay.com)

يشير محمود حسين في تعريف الهوية:" ... من الاستقراء للأدبيات والدراسات الأكاديمية المتخصصة عن الهوية تشير إلى أن هوية أمة هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها وهذا الذي يعني أن لا هوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمة وحدها تملك الهوية سواء كانت جماعة كبيرة أو صغيرة، شرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي. (الطيب عبد الجليل محمود حسين، من خلال موقع www.sudanpolice.gov)

كما أشار اليكس حول مفهوم الهوية بالقول:" لقد درست الهوية المشتركة من قبل السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين والمؤرخين تحت تسميات عديدة مثل هوية مشتركة، هوية جمعية أو هوية أولية، وتبينت هذه الدراسات وجود أنا اجتماعية أولية مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة واحدة متماسكة، وترتكز هذه الأنا على مبدأ المشاركة الانفعالية الأساسية في إطار الجماعة. (ميكشيلي، 1993، ص103)

2- البعد الجمالي للظاهرة الفنية وبعده الوظيفي للفرد والجماعة:

يقول المفكر مالك بن نبي في هذا السياق أنه لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل أو الأفكار الكبيرة، فان لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه، وقد دفعت هذه الملاحظة

كل من عنوا بالنفس الاجتماعية من علماء الأخلاق أمثال الغزالي إلى دراسة الجمال وتأثيره في الروح الاجتماعية. وترجمة هذا الاعتبار في لغة الاجتماع: أن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسة الموجودة في الإطار الاجتماعي فتنعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صورا معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحي للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو السماجة المستهجنة. (بن نبي، 2005. ص ص. 81، 82).

يرى العديد من الباحثين والمشتغلين في مجال علم اجتماع وأنثروبولوجيا الفن أن الثقافة هي بمنزلة " روح المجتمع" التي تنفخ فيه الحياة، وفن المجتمع هو الأشد تعبيرا عن هذه الروح، على هذا الأساس يمكن النظر إلى الإنتاج الفني بوصفه تعبيرا عن أعراف وتقاليد المجموعة، وليس تعبيرا ذاتيا عن مزاج شخصي لفرد، فالشخص الفعلي " أو الأشخاص" الذين يبدعون هذه القطع الفنية يمكن النظر إليهم على أنهم يعبرون في إنتاجهم عن عقلية المجموعة أكثر من كونهم يعبرون عن نوع من " الرؤية" الفردية. حيث يرى فيكو في هذا الصدد أن الشعب الاغريقي هو هوميروس، فالأعمال الأدبية التي تبدو كأنها كانت من إنتاج عبقرية فردية كانت في الواقع منتجات تعبر عن الثقافة الشعبية في حينها. (انغليز وآخر، 2007، ص. 44).

للفن دور كبير وفعال في حياة الفرد والمجتمع والأمم، فقد مثل الفن سفير المجتمعات ودليل الشعوب ومؤشر التمايز الهوياتي بين الثقافات المتباينة عبر المسارات التاريخية للمجتمعات والحضارات، مما أهله أن يقوم بدور الوساطة ومحاولات إحلال التعايش والتفاهم بين العديد من شعوب العالم خصوصا في الأزمان التي شابها الصراع واحتدام التنافس وتضارب المصالح، وغلبت قانون القوة والغلبة كما نعيشه في زماننا زمن عولمة كل الحياة والخطر الأكبر فيها عولمة الثقافة.

وعلى المستوى المحلي للدول والمجتمعات يساهم الفن في حفظ ذاكرة الأمة من خلال تجسيد روحها الرمزية في لوحات وجداريات ورسومات تظل تمثل جزءا من التراث المادي للمجتمع، هذا بالإضافة إلى التعبير عن القضايا الأساسية والجوهرية، كما يعمل الفن على تدعيم مكونات الرابط الاجتماعي والقواسم المشتركة للذاكرة المجتمعية مما يسهم في وجود التماسك الاجتماعي ويعمل على صناعة بيئة تسودها ثقافة التضامن والوحدة والثقة والسير باتجاه الهدف المنشود وفق رؤية واضحة.

وإن أردنا التفصيل في أهم الأدوار التي يؤديها الفن فيمكننا تفصيلها وفق ما يلي:

- التعبير والحضور في المناسبات الوطنية والدينية للمجتمع خصوصا ما تعلق بالفنون التشكيلية.

- يساهم في صناعة وتنمية الحس الوجداني لدى الأفراد مما يؤدي من خلال عمليات التراكم إلى وجود حس وجداني مجتمعي ايجابي يقلل من الرؤى السلبية وينمي القيم والاتجاهات الايجابية مما يعمل على صناعة مجتمع يسوده التسامح ويغلب لدى أفراده الروح التفاؤلية والرؤى الايجابية تجاه الفرد والمجتمع والكون ككل.
- تعمل الأعمال الفنية على إتاحة الفرص للمبدعين والمبتكرين ولذوي المواهب والقدرات مما يسهل بروزهم وخروجهم من زوايا التهميش، ويفعل الفن عمليات استقطابهم ورعايتهم من خلال الاهتمام بهم وتوجيههم التوجيه السليم مما يمكنهم أن يكونوا طاقات مبدعة ومعبرة في المجتمع.
- أصبحت الفنون بمختلف أنواعها تشكل الحصة الأكبر في البرامج الإعلامية، وبالتالي تبث من خلال وسائل الإعلام ومختلف وسائط التواصل الاجتماعي وعلى قدر هادفية المحتوى الفني وانسجامه مع الثقافة المحلية على قدر ما تكون رسالته التربوية والتوجيهية والتعبيرية ناجحة.
- يعمل الفن على إحداث جو من الترفيه والترويح عن النفس مما يساهم في خلق فضاءات تستثمر فيها الطاقات الإبداعية حيث يتجه الأفراد وجهة صحية ايجابية، وبالتالي يبتعدون عن القلق والشعور بالضجر وتجنب الوقوع في الآفات الاجتماعية كالعنف والجريمة والمخدرات....

إن العلاقة الحقيقية بين الفن والحياة الاجتماعية لا يمكن قياسها بموضوعية ضمن دائرة الفن في مجريات الحياة الاجتماعية فحسب، وذلك من خلال تجسيد العادات والتقاليد والسلوك والأذواق وطرق الحياة والأحداث المفصلية الهامة، بل الأكثر أهمية من ذلك أن يواكب الفن التغيرات البنيوية الحاصلة داخل المجتمع خصوصا ما تعلق بالتغير في أنماط وعلاقات الإنتاج وعلاقات الطبقات المشكلة للمجتمع بعضها ببعض.

وفي إطار توظيف الفن لخدمة قضايا الأمة والمجتمع يمكن القول أن الفن الهادف والراقي هو الفن الذي يخدم المجتمع دون أن يفقده ذلك قيمته الفنية النبيلة والعليا، وبذلك يمكن القول أن الفنان له دور كبير في تحمل جانبا من المسؤولية الاجتماعية تجاه مجتمعه في مختلف الأزمان وخصوصا في أوقات الأزمات والتحديات كمساهمة الفن في دعم مسيرة التقدم والتنمية، فالفنان يستشعر المشكلات ويرى الحقائق فيعمل على ترجمتها من خلال أعماله الفنية على المحاكاة الحرفية، بل يجسد أعماله انطلاقا من فلسفة وفكر يحدد رؤيته تجاه قضايا مجتمعه فيقوم بعمليات فنية إبداعية خلاقة بعيدا عن الانفعال، إنها أعمال فنية هادفة ولها هدف مقصود يجسد من خلالها الفنان واقعه المعيش بحكمة وحنكة الفنان التي صقلتها تجاربه المتعددة.

وهناك متلازمة كي يؤدي الفن دوره في المجتمع، وهي أن ينطلق الفنان من خلفية ثقافية وتربوية ومستوى تعليمي ذو جودة عالية، كما أن يقوم المتلقي بالتفاعل مع المنتوج الفني بمستوى

ذوقي عال وبروح انتقائية منطقية مما يزيد الإبداع الفني القيم دعما وأكثر رواجا وأعمق فعالية من خلال نسق إنتاج الأفكار الايجابية، وبالتالي بروز أحسنها وأقواها وأنسبها كمقترحات لحل المشكلات التي يستشعرها الأفراد ويعانيها المجتمع، ومن ثمة زيادة سيرورة الأعمال الفنية فعالية ودقة وعمقا في التعبير عن قضايا المجتمع وخدمة له للوصول إلى الهدف المنشود، خصوصا في وقتنا الحاضر الذي يميزه التباين الجيلي والتغير السريع والمستمر في كل الجوانب والأنساق المجتمعية.

3- المنفعة المادية للفنون في حياة الشعوب والدول

ومن أبرز ما يقوم به الفنانون هو محاكاة واقع ويوميات الحياة الاجتماعية بمختلف مكوناتها وعلى اختلاف تفاعلات صانعيها وذلك من أجل استبار المحيط الاجتماعي بشكل دقيق وشامل، وهو ما يولد رغبة جامحة ودائمة لدى الفنان من أجل فهم محيطه ومحاولة رؤية ذاته من خلال ذلك المحيط، وبالتالي التركيز على معالجة وفهم المشكلات الأكثر تعقيداً كالوجود الجمعي و الذات الاجتماعية، حيث يعمل الفنان على محاكاة الموضوع واستيعابه من أجل الانطلاق من أساس متين في بناء العملية الفنية التي سعى من خلالها الفنان إلى وصف وتوثيق الحياة اليومية بكل أحداثها ورمزياتها ومحكياتها الكلامية.

وتقوم أهمية الفنون التقليدية على دورها الفعال في المجتمع وتأثيرها في حياة الأفراد اليومية وفي تعدد وظائفها وترابطها العضوي باعتبارها وسائل وأدوات علمية تقوم بإشباع الحاجات الإنسانية المختلفة مادية ومعنوية، ولكي نفهم أهمية الفنون ووظائفها الاجتماعية، يجب دراستها من خلال عملية توظيفها في الواقع العملي أي من خلال الفعل الاجتماعي الذي تقوم به في الحياة الاجتماعية، ذلك أن الفن خلافا لجميع نشاطات الإنسان الأخرى يمتاز بوظائف ومهام متعددة، مترابطة ومتشابكة، يتداخل فيها التشكيل الواقعي وغير الواقعي لتجارب الإنسان وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية، ولما كان الفن شكل من الأشكال المتميزة للمعرفة الإنسانية فانه يعكس التجارب والخبر والمعلومات التي تراكمت لدى الإنسان عبر تاريخه الطويل.(إبراهيم الحيدري ، 1984، ص50)

يمكن النظر إلى كل شيء يصنعه الإنسان من زاويتين الأولى جمالية بالمعنى الدقيق للكلمة، أي من خلال الشعور الفوري بالبهجة أو اللذة" أو الانزعاج أو الاشمئزاز " الذي يولده لدى من يراه، والثانية مفهومية أو سيميائية، أي حسب المعنى، أي الدور أو المنفعة التي ينشدها الصانع أو المستخدم لهذا الشيء والمستخدم غالبا هو الجماعة... وفن افريقيا وبولينيزيا والهنود الحمر هو وظيفي، أي أنه ينبري للفعل أكثر من أن ينحو إلى التأمل ولا يعني ذلك افتقاده للبحث المجرد عن

الجمال، بل أن ذلك البحث كامن في الأفعال الحقيقية قبل الأعمال الفنية. (فيليب لابورت-تولرا، 2004، ص250، ص252)

إن أفضل فرصة لتشجيع ديمقراطية فنية ليست من خلال مقرطة الفنون القائمة، بل من خلال تحديد التجارب والأنشطة الإبداعية القائمة والاعتراف بها ودعمها، وهي التي لا ينظر إليها حاليا على أنها مجرد تجارب وأنشطة فنية، بل هي الآن جزء من ثقافتنا العامة، بالتأكيد هناك أسس سياسية حكيمة للهدف الرامي إلى الاعتراف ودعم وتطوير أشكال الإبداع الثقافي، التي تمتد جذورها فعليا في الوسط الاجتماعي وفي اهتمامات المستهدفين في هذه السياسة، ونقطة البداية المهمة لتشجيع المزيد من الإبداع هي ببساطة من خلال ترسيخ أنواعا جديدة من المؤسسات الوسيطية " وليس التقليدية أو ذات التوجه من الأعلى للأسفل" لتوسيع وتعميق وزيادة الوعي بإمكان الوصول إلى هذه الأشياء واستخدامها، وبهذه الطريقة يمكن أن يحول التناسق بين المؤسسات الفنية الرسمية وانعكاساتها على الدراسات الأكاديمية، إلى شيء أكثر حيوية وتعبيرا عن الظروف اليومية التي ينخرط بها الفاعلون الاجتماعيون في أشكال الممارسة الجمالية المستبعدة حاليا-سواء تحليليا أو عمليا-من عالم الثقافة الرفيعة الرسمية(انغليز وهغسون، 2007، ص. 146) .

4- الفن الوطني ودوره في إثبات الكينونة والهوية في ظل التفاعلات الحضارية:

في هذا الصدد يقول بيار بورديو:" التقليد يصلنا عبر الأقدمين، بشكل تقليد شفهي وبخاصة. مثل الخرافات والأساطير والقصائد والأغنيات التي تنتقل عبرها تلك الشبكة من القيم التي تحيط بالفرد وتلهم تصرفاته وفي الغالب نجد أن هذه التعاليم تهدف إلى تحقيق هدفين: الأول يتمثل في إيصال معرفة الأجداد والهدف الثاني هو إبراز الصورة المثالية التي يكونها المجتمع عن نفسه."(بورديو، 1958، ص. 93).

لطالما وظف الإنسان الفن للعبير عن أحاسيسه و تجسيد ثقافة انتمائه وطرح مجموعة من التساؤلات التي تبرز من خلالها محددات هويته ورؤيته للكون والحياة، وغالبا ما كانت الأعمال الفنية بمختلف ألوانها وطبوعها و التي حازت اعترافا عبر التاريخ الإنساني وأدت دورا مهما للقضايا الإنسانية العادلة، كانت نابعة من الشخصية المجتمعية مبنية على أسس جمالية تعبر عن الجغرافيا ومكونات الذاكرة الجماعية وأحداث التاريخ المشترك والتقاليد الأصيلة الراسخة، إنها معركة النضال من أجل الحفاظ على الكينونة الأصيلة أمام الغزاة والمحتلين ضد المعتدي الذي أمسك بزمام القوة فعمل جاهدا من أجل سحق وطمس الآخر المسيطر عنه والشواهد الدالة على ذلك كثيرة وعديدة من أبرزها صمود الفنون ونضال الفنانون الجزائريون خلال الحقبة الاستعمارية

الفرنسية للجزائر، ونجد المعركة مستمرة في ومنا الحاضر من قبل الفن التشكيلي الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني ومشاريع الاستيطان والتهويد.

لقد احتلت مسألة الهوية والكينونة المجتمعية بكل أبعادها حيزا معتبرا من النقاشات الفكرية وكذا التناولات السياسية خصوصا في وقتنا الحاضر الذي اتسم بسيادة وسيطرة ما يسمى بالنظام الدولي الجديد وما انبثقت عنه من ايديولوجيات وعمليات كبرى كالعولمة والأمركة ليس في بعدها الاقتصادي فحسب بل حتى في بعدها الثقافي.

حيث أصبحت الخصوصيات الثقافية في المعمورة تحت وطأة تهديد عمليات التثاقف القسري ومحاولات الهيمنة والسيطرة من قبل الثقافة الغربية المعاصرة في إطار ما سمي بمشاريع الأمركة الثقافية وفي هذا المضمار كان العنصر الجوهري المستهدف هو الهوية الذي يؤدي وظيفة هامة لكل أمة وثقافة حيث يصنع الرابط الاجتماعي الذي يجعلهم متناغمين في أفعالهم ومواقفهم ينشدون الوحدة خصوصا في ظل التحديات الراهنة وتمثل الثقافة الغذاء الروحي للأمة، حيث يسهم في إنتاج هوية جمعية موحدة تصنع بوتقة تذوب فيها وتنصهر عناصر ومكونات المجتمع مما يولد الشعور بالانتماء للجماعة والإقليم الجغرافي، مما يدفع دوما أفراد المجتمع للدفاع عنها وحمايتها.

وتلعب الفنون على مختلف أنواعها وأشكالها دورا رئيسيا في الحفاظ والدفاع عن الهوية والكينونة والخصوصية، كما يمكن أن يوظف الفن بمختلف أنواعه من قبل الأطراف المسيطرة والتي تحوز الغلبة الحضارية من أجل التشويش أو تشويه الثقافات الأخرى، وكمثال على ذلك ما قامت به السينما الفرنسية الكولونيالية أثناء فترة احتلال الجزائر.

وفي هذا المضمار توجد الشواهد والأدلة الكثيرة نذكر منها ما أورده الكسان بقوله:" قبل حرب التحرير كانت توجد بالجزائر مصلحة فوتوغرافية واحدة، وفي العام 1947 أنشأ الفرنسيون مصلحة سينمائية أنتجت عددا من الأشرطة القصيرة عرضت كما ترجمت في أغلبها إلى لغتين، وكانت هذه الأفلام متنوعة فهناك أفلام تتعلق بالعادات الجزائرية، وهناك أفلام توثيقية، وأفلام ثقافية، أفلام حول الحياة الزراعية، أفلام حول الوضع التربوي الصحي أفلام دعائية، ومن أمثلة ذلك نذكر: "قيصرية" لـ: ج. هويزمان،"الإسلام"، "العيد غير المنتظر"، "رعاة الجزائر" "هيبون الملكية" (الكسان، 1978، ص. 216).

وهذه الأعمال السنيمائية الكولونيالية حتى وان ساهمت في إرساء تقاليد سينمائية في الجزائر، غير أنها كانت تخدم الأجندة الاستعمارية من خلال التشكيك في الأمة الجزائرية، وعرض

صورة مشوهة للفرد والجماعة والمجتمع والشخصية الجزائرية، وهي الهدف التي كانت دوما فرنسا تسعى لتحقيقه ضمن مشروعها الاستيطاني من أجل هدم وطمس هوية المجتمع الجزائري.

وفي إطار توظيف السينما من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر لخدمة أجندتها يشير عبد الغني مغربي :" إنها مصلحة التوزيع السينماتوغرافي S.D.C التي ستعرف سكان الأرياف شيئا فشيئا بالسينما، هؤلاء الذين يجهلون هذا النوع من العروض، فعلى مدار سنة 1948 تمكنت مصلحة التوزيع السينماتوغرافي S.D.C من عرض حوالي 250 عرضا سينمائيا شاهده 485.000... وبحسب ميراتي P. Murati المسؤول الأول عن هذه المصلحة فقد أحصى 10.000 مشاهد للعرض الواحد في بعض المناطق مثل بابا علي، سوق أهراس، الوادي.(Megharbi, p p. 42.43)

فلو أخذنا السينما كفن من الفنون خصوصا أثناء فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، أو سنوات ما بعد الاستقلال فنجدها قد ساهمت في الدفاع عن الهوية الجزائرية، وذلك من خلال الأفلام التاريخية التي ركزت على تجسيد تاريخ الأمة الجزائرية، وإبراز ودعم مقاومة الأمة الجزائرية خلال فترة الاستعمار الطويلة للجزائر، وكذلك إبان الثورة التحريرية الكبرى، وفي ظل هذا الإنتاج نجد أن موضوع الهوية حاضر بقوة.

وفي هذا الصدد يذكر هاشم النحاس:" لقد أدى ميلاد السينما في الجزائر في أحضان الثورة إبان الحرب التحريرية أن تكون السينما ملتزمة من البداية، سلاح في يد الثوار يعبرون به عن أنفسهم، وبعد الاستقلال ظلت على التزامها بالتعبير عن حركة المجتمع الجديد." (هاشم النحاس، 1976، ص99.)

ففي الحقبة التي أعقبت الاستقلال برزت مجموعة إبداعية من العمل الفني عموما وعلى المستوى السينمائي، وكانت في مجملها تسعى إلى إبراز عناصر الهوية الجزائرية ضد حملة الطمس التي مارسها الاستدمار الفرنسي الصليبي ضد الشعب الجزائري على مدار أكثر من قرن من الزمن، حيث تناولت السينما الجزائرية في هذه الفترة أعمالا عديدة ومتباينة من أبرزها مسرحية " أولاد القصبة" لعبد الحليم رايس والتي أبرزت دور الأعمال الفدائية.

ويرى يولداشيف أن أنواع الفن المختلفة تعبر بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن مصالح الناس والفئات والطبقات الاجتماعية، الأخلاقية والجمالية والدينية والسياسية والحقوق الاقتصادية، وأن التعبير في الفن عن مصالح مختلف الطبقات يولد وظيفة الفن الأيديولوجية وهي إمكانية استخدام الفن في النضال الطبقي من أجل تحقيق المصالح الجذرية للشعب (يولداشيف 1984، ص. 112).

وإذا نظرنا بلمحة سريعة حول دور الفن التشكيلي فيمكننا القول أن الفن التشكيلي قد انتشر في الوطن العربي بصورة واسعة ومكثفة ابتداء من خمسينيات القرن الماضي، وأصبح رافدا من روافد الثقافة في البلدان العربية زاخرا بطروحاته الفكرية وممارساته الفنية، وأصبح الفنان التشكيلي منخرطا في الحركة الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يعرفها المجتمع، خصوصا في العقد الأخير من القرن الماضي، والعقدين من قرننا الحالي، ففي ظل احتكاك مباشر مع الغرب ولتعرض لسطوة وغلبة الحداثة الغربية، أصبح الفنان التشكيلي يبحث عن ملائمة مع جمهوره من خلال تحديد الصلة بالثوابت الهوياتية، والبحث عن الوسائل والقنوات الضرورية لإحداث عملية تواصلية فعالة وسليمة مع الجمهور.

غالبا ما يعمل الفن التشكيلي على تجسيد عناصر التراث وما يحمله من رمزيات تعبر عن البعد الهوياتي عبر مرور الأزمان، فتعمل على استحضار الماضي في الزمن الحاضر، وتنبعث من هذه الرموز مؤشرات دالة على نوع من الانتماء الثقافي والحضاري مخصوص ومتميز، كما يعمل الفنان التشكيلي من خلال أعماله للتعبير عن القيم التي تشكل اتفاق الجميع وتحظى بنوع من التقدير وقد تصل أحيانا إلى درجة التقديس، تلك القيم التي يستند إليها المجتمع ويستلهم منها أفق التحرر والسير نحو النهوض والتطور.

إنها مسألة علاقة وطيدة ومتينة بين الممارسة التشكيلية الفنية والتجذر الثقافي الذي من خلاله يتحدد انتماء الفنان ويقابله في الوقت ذاته محددات الهوية الجزائرية من خلال هذا الامتداد الثقافي العميق الذي شهد تمفصلات وأحداث تاريخية تشكلت بموجبها الهوية الجزائرية، حيث تعمل الفنون التشكيلية الهادفة على إضفاء شرعية على الهوية الوطنية، وتكون بمثابة المعلم للأجيال من أجل استشعار الانتماء، وتكون سفيرا للهوية الوطنية في عالم الثقافات المعاصرة، وتشترك الفنون التشكيلية في هذا الدور مع الفنون الأخرى كالصناعات التقليدية والخط العربي والحرف الشعبية، فكلها تعمل على الالتزام بقضايا المجتمع.

وبإمكان الفنون أن تعبر عن المكون الهوياتي للمجتمع من خلال تجسيد وتصوير فضاءات التفاعل الاجتماعي ضمن نطاق المنزل، الحارة، السوق، المدرسة، المسجد، وكل مجريات الحياة اليومية، دون أن ننسى الجانب الثقافي المادي كالأزياء والمعمار والتركيز على الجوانب الرمزية، ذلك أن تحديات العولمة الثقافية المفروضة تستوجب المسايرة والتكيف من خلال توظيف التراث المحلي في العمليات الفنية المختلفة، والعمل على إبراز القيم الروحية والمادية للمجتمع.

- الخاتمة:

في ختام هذا المقال يمكننا أن نسأل هل إبراز الهوية وإثباتها يمكن أن يكون مكفولا من خلال توظيف عناصر التراث المحلي في الفنون التشكيلية أثناء عمليات التجسيد والممارسة، إن الفن بشتى أشكاله وأنواعه هو جزء جوهري في حياة الإنسان وأنيسه خصوصا في الأوقات والأزمان العصيبة، حيث يتم الاعتماد عليه في التعريف بالإنسان وبانتمائه الثقافي والحضاري، وترسيخ عناصر الهوية وقيم الانتماء الوطني، وهذا قد نجده مجسدا في لوحة من لوحات الفن التشكيلي، حيث تبرز ثقافة مجتمع، وتسجل أبرز أحداثه التاريخية، وانجازاته البطولية فهي سجل يدون تاريخ الأمة ويحفظ عناصر هويتها وكينونتها من الزوال، سواء ما تعلق بمكونات المجال الجغرافي أو سلسلة الأحداث التاريخية، وسجل الانجازات الحضارية، أو ما تعلق بالمعمار في بعده المادي الجمالي، والمرأة والطفل والمنزل بعاداتها وتقاليدها المتميزة بدلالات رمزية وتعبيرية، وبالإمكان توظيف هذه العناصر من خلال إدراج الفنون التشكيلية كمواد دراسية في الأطوار التعليمية، وبالتالي صيانة وحفظ الهوية والانتماء في ظل العولمة الثقافية المعاصرة.

قائمة المراجع:

- الأيوبي ياسين.(1982). مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات، الرمزية. ط1، ج2. بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- الحيدري إبراهيم. (1984). اثنولوجيا الفنون التقليدية. سورية. دار الحوار للنشر والتوزيع.
- الغزالي أبو حامد. (د. ت) . إحياء علوم الدين، باب المحبة. لبنان. دار المعرفة.
- الكسان جون. (1978). السينما في الوطن العربي. عالم المعرفة.ع.51 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- النحاس هاشم. (1976). الهوية القومية في السينما العربية دراسة استطلاعية مستقبلية. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- انغليز ديفيد وآخر. (2007). سوسيولوجيا الفن طرق للرؤية. ترجمة ليلى الموسوي. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت ع341.
- بدوي عبد الرحمان.(1984). موسوعة الفلسفة. ط1، ج1، بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع.
- بن نبي مالك. (2005). مشكلة الثقافة. دمشق. دار الفكر.
- بورديو بيار (1958). علم اجتماع-الجزائر. باريس.
- تولرا فيليب لابورت. (2004). اثنولوجيا أنثروبولوجيا. ترجمة مصباح الصمد. بيروت. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- حسين الطيب عبد الجليل محمود (2019). إشكالية الهوية وبناء الدولة الوطنية المعاصرة من خلال موقع www.sudanpolice.gov
- علوش جميل.(2000). النظرية الجمالية في الشعر بين العرب والافرنج. عالم الفكر. مج29.ع1 يوليو-سبتمبر. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- غنيمي هلال. (1983). الأدب المقارن. ط3. بيروت. لبنان. دار العودة.
- مسلم محمد. (2009). الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا. الجزائر. وزارة الثقافة الجزائرية.
- ميكشيلي اليكس. الهوية. (1993). ترجمة على وطفة، ط11. دمشق. دار الوسيم للخدمات الطباعية
- هالبيرن كاترين (2020)، مفهوم الهوية. تاريخه وإشكالاته. ترجمة: الياس بلكا www.cjtcmay.com

- يولداشيف ليكال. (1984). قضايا البحث الفلسفية في الفن، ترجمة: زياد الملا. سوريا. دار دمشق للطباعة والنشر.

- Megharbi Abedlghani, (1986) . les algériens au miroir du cinéma colonial. Alger